



سالم صالح محمد ❖

استشراف المستقبل ودور العرب فيه

يبدو لي حال المواطن العربي اليوم كما عبر عنه البيتان الشعريان اللذان يعودان الى عصور قديمة تسجل عمق مأساة هذا المواطن:

أرى الموت بين السيف والنتعج كامنا
ومن ذا الذي يدلي بعنذر وحجة
يراقبني من حيثما أتلفت
وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وشأنني شأن أي مواطن عربي مكبل اليدين بأغلال الهموم والمعيشة اليومية ومخلفات الموروث الطاعني من تلك العلاقات الرعوية والإقطاعية التي خرجت من رحم العلاقات العبودية التي سادت الشرق قرونا طويلة وما زال هذا الموروث يفعل فعله فينا، كأنما يقبع في داخلي شرطي من (أولئك العسس) يراقب التواقيب قبل الأفعال ليس لديه سوى أمر واحد قال له سيده راقب كل تصرفاته وحركاته.

ولذا عندما أصحو الصباح وأقول (يا الله اليوم) وبدون أن أكمل الجملة يرد علي هذا الشرطي الساكن في عقلي والملتحف جسدي مقاطعا «ويش ناوي تعمل يا ملعون؟»، ولذا فإن خوفي لما هو في داخلي أكثر من خوفي لما هو خارجي في الحياة من مشاهد وأحداث مما أعيشه وأشاهده.

تسألني أن أنظر إلى المستقبل كزمن مع أن ما يجري حولي يجذبني إلى المكان المعاصر خارج الزمن المستقبلي فلو نظرنا اليوم إلى جارتنا العزيزة إيران المسلمة الشقيقة وهي تجري بسباق ماراثوني نحو النادي النووي، وخلفها الصين وجاراتها النور السبع ولحقت بهم كوريا الشمالية التي تحددت أمريكا وحلفاءها ودخلت النادي النووي، وأما إذا تطلمت شمالا أجد تركيا العزيزة المسلمة وهي تجري بلهفة نحو الالتحاق بالاتحاد الأوروبي ولو نزلت نظرك قليلا فسوف ترى ما تفعله «إسرائيل» فينا وبنا وبحقنا في الشام كلها، ولو سمحت لنفسني بالالتفاف إلى الغرب والجنوب فسنشاهد الحرائق في الصومال والسودان والجزائر وموريتانيا وهي لا تختلف عن مشاهد مماثلة في جميع الأقطار العربية، ولذا فالسؤال أصبح مألوقا لدينا والجواب أكثر ألفة في وقتنا الراهن ولا يكلف المرء نفسه عناء الجهد أو التفكير المضني ليحدد معالم المستقبل سواء للعام القادم أو الأعوام التي تليه، إذ إن ما نزرعه اليوم نحصده غدا.

دعني أرجع قليلا إلى التاريخ فعند قراءة لآلة الأولى للأستاذ الزعيم احمد محمد النعمان الذي كتبها قبل حوالي الستين عاما أجد أننا جميعا فيه، وعندما أراجع كتاب عبدالعزيز الثعالبي التونسي عند زيارته إلى اليمن وقدم مقترحاته الوجودية بين الشطرين وحينها كان الإمام يحيى حميد الدين وسلطين الجنوب العربي في بداية القرن الماضي أجد فيه تلك الحلول لأكثر المشكلات القائمة في الوطن العربي الكبير.

أما ما كتبته بتواضع في صحيفتكم وغيرها من الصحف العربية قبل سنوات وبالذات حول الوضع العربي تحت عنوان (التعافي العربي) لا أجد جديدا في الوضع العربي في هذا العام وما يعتمل العام القادم غير نتائج تلك الحروب والتداعيات الحاصلة في القطر العراقي الشقيق وفلسطين ولبنان والسودان والصومال والخلافات العربية. العربية والمزيد من هشاشة الموقف العربي، إذ إننا مازلنا في حقيقة الأمر نعيش أوضاعا قطرية وعربية هي أقرب إلى التشرذم والتمزق في النفوس وإعادة تقسيم الأوطان وعلى أسس طائفية ودينية وعرقية كلنا نرفضها ولكننا نقبل بالتعامل معها كأمر مفروض علينا (راجع آخر مقترحات جيمس بيكر حول العراق).

إن ما تشهده الساحة العراقية لا تقبله أمة حرة تمتلك هذه الحضارة وهذه الطاقات والإمكانات والمضايق والمواقع الاستراتيجية وإن ترسخ لمصالح مجموعة شركات احتكارية أكانت أمريكية أو أوروبية القيام بما تقوم به سواء تلك التي تعمل في صناعة الأسلحة أو تلك التي تعمل في مجال النفط والغاز والطاقة أو تلك الشركات التي تعمل في مجال الطيران والتكنولوجيا إدارات وأشخاص وصلوا إلى سدة السلطة عبر دعم هذه الاحتكارات وهؤلاء لا يمثلون الشعب الأمريكي الحر ولا مصالح الشعب البريطاني إذ إن هذه الشعوب التي نحترمها ولها صداقات وعلاقات إنسانية ثابتة مع شعوبنا وشعوب الأرض قاطبة لا توافق ولا تحترم هذه الأعمال الوحشية الشيطانية والمريية لوجوش هذه الاحتكارات.

نعترف أن الأمور والأوراق قد اختلطت علينا فلم نعد نميز بين الصديق والعدو وبين ما يقوم به الكيان «الإسرائيلي» وجهاز الموساد وهو ينفذ عملياته في تمزيق الشعب العراقي والفلسطيني

المؤتمرات والندوات للمنظمات غير الرسمية والشعبية وما تصدره مراكز الدراسات والتحليل والمنتديات وما أكثرها هذه الأيام لتعرف واقعنا اليوم ومكاننا في الغد القريب.

لا تتزعج إذا قلت إننا سنظل نراوح في «محلك سر» إذا لم تمسك الأمة زمام أمورها وتقوم بالإصلاحات السياسية التي توفر الحرية السياسية كركيزة للتقدم والتنمية البشرية داخل كل قطر وإن كان بعضها قد تم على الطريق ومنها ما هو منتظر لكن الوقت كالسيف يقطعنا إذا لم نقطعه.

كذلك القيام بالإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فوراً وبالأخص إعطاء المرأة كامل حقوقها، والقيام بتغيير برنامج التعليم الإعدادي والثانوي والجامعي إذ أن مخرجات التعليم الحالي في المنطقة العربية باستثناء بعض البلدان القليلة أصبح متخلفاً للغاية ومخرجاته هم ملايين العاطلين وشبه الاميين من الشباب والذين يتجهون إلى المجهول، إلى الهرطقة وإلى إتباع تلك المفاهيم التي تهدم ولا تبني ومنها ثقافة التكفير والعنف والإرهاب بشقيه الفكري والجسدي.

تريد مني الجواب؟ إنني أتمنى من الحكومات العربية ومن كل مسؤول عربي ومن كل متقف سواء اتفق أو اختلف مع تجربة حزب الله دراسة تجربة هذا الحزب في جنوب لبنان دراسة علمية حقيقية وبعيدا عن حساسية المواقف طائفيًا أو سياسيًا فتجربته التنظيمية وتجربته القتالية وتجربته النضالية وتجربته الإنسانية مع شعبه وتجربته في تحديه أقوى دولة في الشرق الأوسط وأقوى جيش مدعوم من قبل الأمريكان والغرب يستوجب من كل مسؤول الوقوف أمامها والاستفادة منها وبعدها وبعد القراءة المتأنية نسأل أنفسنا هل نستطيع الصمود وهل نتمكن من مواجهة من يريد تمزيقنا على الطريقة التي يمزقون بها شعب العراق الشقيق وفلسطين.

الحروب مازالت مشتعلة في الصومال والسودان وقبلها كانت مشتعلة في الجزائر وحال الأمة حال المتفرد والطلب من الآخرين مساعدتنا في إطفاء الحرائق دون أن نبذل أية جهود في إطفاء هذه النيران في منازلنا أو منازل جيراننا وإخوتنا، أنه لأمر عجيب هذا الوضع الذي وصلنا إليه.

تريد مني الجواب؟ ندرس وبدون مواقف مسبقة دور المواطن العربي الضعيف الذي يبني مقاطعة البضائع الدانمركية عندما أساءوا إلى رسولنا الكريم فماذا كانت النتائج؟

كثبت قبل سنتين بعد مرافقتي للأخ رئيس الجمهورية اليمنية في زيارته إلى ألمانيا وإيطاليا والفايتكان مقالا تحت عنوان (هناك من يجرؤ على الكلام) تطرقت فيه إلى ما تحدث فيه الرئيس أياها الرؤساء والمسؤولين بكل شجاعة ووضوح عن ما يعتمل في المنطقة عن الأوضاع

ويبين من يرمي معنا حجرا ضد هذا العدو، وجاء ضعف مقاومتنا لهذه المخطلطات والتدخلات ليزيد الطين بلة ويزيد من أطماع الآخرين وجشعهم.

فمنذ أحداث 11 سبتمبر / ايلول 2001 والحال العربي لا يسر أحداً حيث لم نشهد أي استقرار ولو ليوم واحد وأصبحنا في أوطاننا نعيش حالة حرب ونموت من الهلع والخوف من جراء تهمة الإرهاب الجاهزة ضد كل من يرفع صوته في المنطقة.

إن تأجيج الخلافات العربية العربية تحت الرماد التي هي أكثر مما هو قائم ومعروف عنه في العلن هي من أكثر الأعمال ضرراً وفداحة في العمل العربي المشترك الذي دفنته الجامعة العربية في آخر اجتماعاتها الأخيرة.

لقد كنا فخورين وطففت أحلام جميلة بين صفوف الأمة بما حققه ذلك التحالف الذي كان قائماً بين مصر والمملكة العربية السعودية وسوريا في قيادة الأمة في السنوات الماضية وإذا بنا بعد الحرب التي شنتها أمريكا وبريطانيا على العراق وما حصل من تداعيات كبيرة في الشام بعد اغتيال غادر للرئيس رفيق الحريري وتقلبات الوضع الفلسطيني حتى عاد الوضع العربي إلى نفس المربع في الاختلاف والخلاف والتشردم وتقبل ما يفرض على الأمة من خارجها وكأنه من المسلمات، مع أنه بقليل من التفاهم والتماسك والتضامن والتضحية يمكن وقف الهجمة وإيقاف هذا التدهور في الحياة السياسية والاقتصادية والمعيشية التي نعيشها جميعاً.

(لقد كنتم خير أمة أخرجت للناس) - الآية الكريمة - فما الذي حصل لنا وأين قادتنا ومفكرنا؟ وأين جيوشنا؟ أين ثرواتنا وبيحارنا ونفطنا ومضايقتنا؟ ما بال الأمة (بحكامها ومحكوميتها) تخضع لعملية هيمنة شاملة تشمل كل جوانب حياتنا وتحولت بكل مناضليها ومبديعيها وفتاتها إلى أمة استهلاكية، أمة تلهث وراء الموديلات وآخر الطليخات وآخر مبتكرات الأناقة والتجميل والإثارة الجنسية وما تصرفه الأمة في هذه المجالات هو أضعاف مضاعفة مما تصرفه على كيفية تعليم أبنائها مختلف العلوم والتصنيع والزراعة وحب العمل.

أصبحنا مستوردين لكل شيء بلا حدود وبلا رقابة وبلا ضوابط ومثلها كنا في الماضي نرفع شعارات اليسار والتحرير ونعتبر هذه الشعارات كافية للتغيير، أصبحنا متحمسين وبلا حدود لكل تلك الدعايات والإعلانات التي تصدرها لنا مجموعة شركات احتكارية تضرب في الصميم كل ما هو جميل في حياتنا الثقافية والحضارية بل وحتى المعيشية.

تريد مني الجواب؟ بدون تعب يا سيدي يمكن للقارئ الكريم العودة إلى مقررات وتوصيات القمم العربية ومقررات مجلس الأمن والأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامي وآلاف القرارات والتوصيات التي خرجت بها تلك



وهنا وكما يؤكد «لا يهم ان كنت أسدا أو غزالا فمع اشراقه كل صباح يتعين عليك ان تعدو أسرع من غيرك حتى تحقق النجاح». أنه تصوير لطبيعة المرحلة الرأسمالية الطفيلية التي تعيش فيها بلداننا في الوقت الراهن، والرأسمال وحش هائل لا يرحم وليست لديه أخلاق غير الربح والريعية، والإنسان الرأسمالي إذا لم تضبطه القوانين والأديان والمثل هو أسوأ الوحوش على الإطلاق، ولذا عندما كنا نناقش نفس المواضيع كتب الزميل الشاعر فضل النقيب في الحال هذا النص:

أقول لصديقي العاشق الأزلي الرقيق المشاعر
المبهور بالأحلام

يا سيدي:

ان الوحوش لا تجيد كتابة الشعر!!

ولا إهداء الورد!!

ولا رش العطور في فضاء الليل

انها لا تجيد

غير افتراس الأحلام وما يجود به الليل وفي الظلام

أما انت وأحلامك

والقمر المنير....

والليل الدافئ....

والعشق الذي يشعل الروح

ويحرق الجسد....

فهذه الصدف الرائعة لا تصادفها الوحوش..

نعم تلك الوحوش التي أحرقت الأخضر واليابس وقتلت الأطفال والنساء والشيوخ دون شفقة أو رحمة أو هزة ضمير بقنابل النابالم والعنقودية في فيتنام والعراق ولبنان وفلسطين وأفغانستان وغيرها من البلدان النامية لن نترحمنا أن نتركنا نعيش بأمن وأمان وحرية؛ فقليل من المال مع العقيدة وكثير من التنظيم يقود إلى النصر وكثير من المال مع قلة العقيدة وقلة التنظيم يقود إلى الهزيمة ورحم الله طارق بن زياد عندما قال (العدو أمامكم والبحر خلفكم)، ونحن اليوم كأمة محاطون بدول نووية لم تصنعها للترف ولكن من أجل استخدامها لإخضاع هذه الأمة وفرض مصالحها عليها.

إنها آراء للتفكير من شخص عاش أفراح وأتراح الأمة على مدى سنوات النصف قرن الماضية وأكمل قولي بما قاله الأستاذ (ج. عمار) كلية التربية - عين شمس - مصر العربية: (إن استشراف المستقبل العربي مرهون بتنمية موارده المادية والبشرية هي مشروطة في عالم اليوم بنمو الثروة العلمية وضرورة مواجهة أنواع التفكير وأنماطهما التي تنتمي الى المصادر العلمية وأساليب تفكيره).

هل نصحو أيها العرب على دول إيرانية نووية وتركيا أوروبية و«إسرائيل» عدوانية والصومال دولة معاكم إسلامية؟ فيما أجهزة الأمن والجوازات تتفحص وتمنع رغبات دخول المواطنين العرب بين أقطارهم العربية تحت حجة الإرهاب والهجرة وهي في الوقت نفسه تمنح التراخيص لمن هب ودب من تلك الدول والأقطار الأوروبية والآسيوية وغيرها مهما كانت شرورها وأخطارها على الأمة، أنها مرة أخرى دعوة للتفكير ولذوي الأبواب والله من وراء القصد.

المعيشية، عن العلاقات العربية - العربية، عن الوضع في العراق وفلسطين ووضع الإرهاب وأسبابه وسبل مكافحته.

وكان قادة هذه البلدان يستمعون باهتمام وبإعجاب كما عبروا في أحاديثهم لأن يأتي هذا الحديث من أحد القادة العرب، فسألوا الرئيس هل تتحدث مع الرئيس بوش بهذه القضايا وبهذه الطريقة؟ قال لهم نعم..

حتى الأوروبيون والآخرون الذين لم يشاركوا في احتلال العراق لديهم توجس من الموقف والسياسة الأمريكية وبالذات بعد أحداث 11 سبتمبر/ أيلول والطريقة المنفصلة التي تعامل بها الرئيس الأمريكي مع الأحداث والتطورات الدولية.

إننا اليوم وبعد سنوات عجاف عاشتها السياسة الأمريكية في العالم أجمع وعشناها أيضا وبالأخص في العراق التي فقدت أكثر من 655 ألف إنسان وفلسطين ولبنان وأفغانستان وإفريقيا وأمريكا اللاتينية يمكن لنا أن نرفع أصواتنا وسترثف إلى جانب تلك الأصوات المرفوعة في الولايات المتحدة وبريطانيا ضد الرئيس الأمريكي المنتهية ولايته قريبا، ولنا أن نرفع أصواتنا مع تلك الأصوات المرفوعة في بريطانيا ضد رئيس الوزراء أنتوني بليير الساقط حتما ونقول لهم إن سياستكم وتدخلاتكم وحروركم القائمة هي لتحقيق مصالح شركات احتكارية بعينها وهي سياسة غاشمة طاغية دنيئة، لا تحقق المصالح المشتركة ولا التعايش بين الشعوب والحضارات والأديان وليست لها علاقة بشعوبكم العظيمة التي قدمت وتقدم للإنسانية تلك المنجزات العلمية الهائلة والتي عملت على تقدم وتطور البشرية جمعاء.

نعم نستطيع رفع أصواتنا تجاه هذه الحروب المفروضة علينا ليس ذلك فقط بل انه بالتأزر وتوزيع الأدوار نستطيع مواجهة الكيان «الإسرائيلي» وقطع أصابع الموساد التي تعبت بأوطاننا وحقنا في الحياة الحرة الكريمة، ومع إطلاق الحرية والحقوق لشعبنا والنفخ في روح الأمة المستمدة من روح الله سوف نحقق العجائب بدلا من الهزائم.

تريد مني الجواب فاسمح لي أن أسالك هذا السؤال؟ كم هي موازنة كل دولة عربية المخصصة للبحث العلمي ولتشجيع المؤهلات والكفاءات العلمية؟ عندما تعرف الجواب ستعرف أي مستقبل ننشده وكيف يمكن لأبنائنا وأحفادنا أن يعيشوا بكرامة وأمان.

يطاردنا يا صاحبي السؤال وستجد نفس الجواب وان اختلفت العبارات والجمل والصيغ والاستنتاجات فمنذ أن اختلفت موازين الأمة وبعد أن ساد الجهل والفقر والمرض وأصبحت الحكومات لا تعترف بدور العلم ولا بدور الإنسان المتعلم ولا بدور التنمية البشرية في النهوض الشامل إذ أصبح معدل الأمية على مستوى الأمة أكثر من 68% فما معنى السؤال؟

كما فهمت ممن قرأ كتاب صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم (رؤيتي) إن سباق التطور في الزمن الرأسمالي شبيه بالعلاقة بين الأسد والغزال في الغابة «فعلى الأسد أن يعدو أسرع من أبطأ غزال وإلا أهلكه الجوع، وعلى الغزال أن يسابق أسرع الأسود عدواً وإلا كان مصيره الهلاك».